كلام في العبقرية

(٢)

العبقرية والجنون

فطن بعض الباحثين منذ الى عام الى يومنا هذا الى علاقة خفية خفية بين الجنون والعبقرية فذكر ارسطوطاليس في كتاب الاخلاق ان اعمال العظماء لا تخلو من علائم المرض . وفرّق افلاطون بين نوعين من الجنون قال : ينتاب الناس نوعان من الجنون فالاول جنون ساقل وهو اختلال التوازن العقلي والثاني هياج روحاني وهو الذي ينتج الشعراء والمخترعين والانبياء وليس هذا شرا على صاحبهِ انما هو منحة من الارباب. ثم تلا هذين المعلمين فلاسفة الرومان فسموا عبقرية الشعر هياج الشعراء فروريوتيكاس (Furor Poeticus) وقال سنكا ما اقرب الذكاء الشديد من الجنون . ثم قال لمرتين شاعر الفرنسويين في عرض كلام لهُ على المواهب « ذلك المرض العقلي المسمى عبقرية » وقال بسكال ان نهاية العقل النافذ بداية الجنون وكانت حالهُ اصدق دليل على زعمهِ . ثم جاء دور العلم الحديث القائم على قواعد الاختبار والمشاهدة فنشر ليلوت الفرنسي في اوائل القرن الغابر كتاباً عن سقراط ادعى فيهِ انهُ بنى حكمهُ على ما جمعهُ من الوقائع والحقائق عن حياة سقراط وان ابا الحكمة كان مجنوناً . ثم نشر بعد ذلك بعشر سنين كتاباً آخر قرر فيهِ جنون بسكال الحكيم الديني الشهير . ثم تلاهُ في منتصف القرن مورو احد علماء مدينة تور فوضع كتاباً في علم احوال النفس والمرض واثبت فيهِ ان العبقرية نوع من ادواء الاعصاب مستنداً الى امثلة تحيط بها الريب . ورأيهُ في ذلك ان غرابة الفكر وسرعة الخاطر وتفوق القوى العاقلة تشبه من الوجهة العضوية الجنون او العته . ولحقهُ لومبروزو احد مشاهير العالم في علم الانسان واردف كتاب مورو بكتاب في العبقرية والجنون ولم يزد على نظرية مورو ولكن راد ذكر شواذ اخلاق بعض المشاهير . واحسن فعلاً لاحتراسهِ اذ قرر ان كثيرين من العبقريين لم يكونوا مجانين . وتبع هؤلاء العلماء اللاتين في رأيهم علماء من الالمان امثال هاجن في كتابهِ عن العبقرية

المسمى (Über die Verwandtschaft des Genies mit den Irresein) ورادستوك في كتابه (Genie und Wahnsinn) ولا ريب في ان اجماع هؤلاء العلماء وكلهم من ذوي السلطة في عالم الفكر الانساني يدهش من تعوّد اعتبار العبقرية اعظم منحة يتمتع بها الفرد والجماعة. لاجل هذا نهض فريق كبير من المفكرين لدحض تلك الدعوة. ولكن نظرهم الى الامر كان اميل الى مناجاة القلب والعواطف منهُ الى محاجة العقل ومقاومة العلم كأن يقول لك قائلهم ترى ايتصور الانسان جنون شكسبير وهيجو اوعته داروين او بلاهة بسمارك او غفلة ماكيافيلي. اليست العبقرية نتيجة توازن قوي النفس والعقل كما ان الجنون نتيجة اختلال تلك القوى. وقد انضم الى هذا الفريق جوته اعظم عبقري الالمان وقال ان العبقري يجمع في شخصه اسمى مواهب امرتهِ او جنسيتهِ. ولما كانت نظرية مورو التي تعلق باهدابها لومبروزو غير قائمة الاّ على شذوذ نفر من العظماء ولم ينظر انصارها في احوال العدد الاكبر منهم ممن اشتهروا بكمال الخلق فلا غرابة اذا لقيت اشد انواع الانتقاد من العلماء الطبيعيين انفسهم. فقد نشر العالم الفرنسوي فلوران كتاباً بعد كتاب مورو دحض فيهِ رأيه وقال ان هذا الرأي عارٌ على الانسانية. الاّ ان الجمع بين الفضيلة والرذيلة اقرب الى ذهني من الجمع بين العبقرية والجنون. كان سقراط يعتقد انهُ مصحوب بشيطان من الجن وكان بسكال يعتقد ان تحت أقدامهِ هاوية فهل اضعف اعتقادهما من قوة عقلهما وهل حقّر زعم الاول وخوف الثاني من قدر مبادئهما. ان العبقرية هي منتهى القدرة على الادراك والتفكير وسبل الحق شتى ولكن العبقري هو الذي يكتشفها ويسلك اقربها. والدليل على ذلك ان افكار العبقري مع غرابتها وحداثتها واصالتهُ مع خروجها عن المألوف صادرة كلها عن خطة مرسومة اما افكار المجانين وافعالهم فلا تكن تعليلها فكيف يمكن الجمع بين الخلتين معاً

بيد اني اقاوم رأي مورو ولومبروزو واين خطأهما بادلة محسوسة مشاهدة. يقول مورو ان العبقرية مظهر خاص من مظاهر الجنون وانهما يشتركان في فيضان الحيوية وان ذلك الفيضان الحيوي هو اول درجات المرض العبقري فاين أدلتك يا مورو؟ انك لم تطرق باب العلم الطبيعي ولم تبين لنا صدق نظرك بالبراهين الحاسمة ولكنك لجأت الى امور تضحكنا. تزعم ان تكوين العبقري كتكوين

المعتوه فيتشابه الاثنان اما في ظهور علائم الذكاء قبل اوانها واما في بطء ظهورها. ثم انهم شاهدوا في العبقريين عادات شاذة وخلالاً خارقة للعادة ونوادر هم في ذلك كثيراً كتباً ولكن ما قيمة هذين الدليلين في نظر اهل العلم الصحيح. كل عبقري ينضج عقلهُ قبل سواهُ او كل عبقري ينضج ذكاؤهُ بعد غيره ان صح احد هذين الفرضين او كلاهما فلا يصح قولنا ان كل من نضج عقلهُ قبل سواهُ او نضج ذكاؤهُ بعد سواهُ يكون عبقريًّا . وما قيمة اشتراك العبقري وغيره في الشذوذ في امر. ومتى كان الشذوذ اثراً من الجنون وهو قد يكون من نتائج المبالغة في التعقل والمغالاة في اتباع نظام خاص . اما عن لومبروزو فكلامنا لا يطول لانهُ مقلد مورو . قال مورو ان العبقرية من آثار الاستعداد الفطري وقال لومبروزو انها من آثار الانحطاط او الفساد العقلي (degenerescence) بل ان التلميذ فاق استاذهُ فادعى استاذ علم الانسان ان العبقرية شكل من اشكال الصرع وانها نوع من الجنون . وعلى اثر هذا الاكتشاف انطلق يقيس جماجم الاموات ورؤوس الاحياء ويقدر مواهب العقول وخلال النفوس بالسنتيمتر والمليمتر ويا لسوء حظ من كان محيط جمجمته كذا سنتيمتراً . اما نظريتهُ فخلاصتها ان العبقرية شكل من اشكال الانحطاط ولاثبات ذلك لا بد من اظهار ما يبدو في فعال العبقريين واقوالهم من آثاره . ولهذا العالم فضل واحد وهو انهُ لم يذكر مطلقاً ان العبقرية شكل من الجنون كذلك لم يعرّف لنا العبقرية ولكن يمكن استنتاج تعريفهِ وهو انها مجموعة المواهب العقلية التي تنتج عملاً عقلياً ما. وكذلك لم يذكر لنا تعريفاً للانحطاط المنتج للعبقرية اما ادلتهُ فعليها مسحة الاهمال والتعجيل واليك بيانها

يقول العلامة لمبروزو ان علماء الطب يعرفون الانحطاط العضوي (decadence organique) علامات ظاهرة قلما تخطئ وان هذه العلامات لا تحصى لكثرتها لان العلم الحديث يضم في كل يوم اليها ما يستجد منها وتثبت اضافتهُ اليها بالاستقراء العلمي والمشاهدة الطبية ولكن الذي ثبت في هذا البحث واقرهُ لومبروزو نفسه ان الشواذ تربو على الاحوال التي تثبت القاعدة مثال ذلك ان ضيق الجبين ان كان دليلاً على الانحطاط العضوي في حال واحدة فقد يكون دليل الذكاء في عدة احوال. وعدوا قصر القامة مظهراً من مظاهر الانحطاط على ان اقدم الاساطير تؤيد ما هو ضد ذلك فقد قال الشاعر «قصار الناس اطولهم

عقولاً . وها الواقع يثبت صحة هذا الزعم فان معظم العظماء صغار الابدان وفي مقدمتهم ارسطوطاليس ويوليوس قيصر ونابليون بونابرت وفولتير ولسنا نقول بان العبقرية او الملكة (Talents) مقصورتان على صغار الابدان فكم عاقل جاهل بين القصار وكم نابه عبقري بين الطوال ولكن هذا البيان كاف

زعم لومبروزو ان القصر علامة ظاهرة للانحطاط العضوي وذكر انهُ جاء في سفر التكوين ان موسى عليهِ الصلاة والسلام كان بليغاً فاستنتج لومبروزو ان البلغ علامة جديدة من علامات الانحطاط لدى اهل العبقرية واكتشف ان معظم العظماء لا يتركون نسلاً فقال ان عقم الرجال (Sterilite) علامة من علائم الانحطاط. على ان بين العظماء كثيرين اخلفوا نسلاً فقد خلف النبي محمد وهو سيد العبقريين وخلف بونابرت وخلف داروين وكذلك يوجد عدد وافر من العاطلين والجهال بلا نسل . واصل قلة النسل لدى العبقريين يرجع الى علة غير التي ادعاها لومبروزو وتلك العلة الحقيقية هي انصراف العبقريين بطبيعتهم وميولهم عن حياة الزوجية. ولدينا خبر احدهم توماس كارليل فانهُ عاشر زوجتهُ اكثر من سبعة عشر عاماً ولم يكن لها زوجاً. وذكر لومبروزو ان الاطفال المصابين بالانحطاط العضوي متشابهون في الخلق فالانحطاط رابطة معنوية مشتركة بينهم وقرر ان العبقريين جميعاً متشابهون وانهم من فصيلة واحدة ينتسبون اليها ولا ينتسبون الى صفات الوسط الذي ينشأون فيهِ . فان بونابرت لا يشبه اهل كورسكا وبسمارك لا يشبه اهل المانيا وداروين لا يشبه الانجليز ولكن هؤلاء العبقريين متشابهون جميعاً فيما بينهم على تفاوت اوطانهم وهذا يبدو للناظر الى تصاوير يوليوس قيصر وبونابرت مثلاً. ويريد لومبروزو ان يثبت بذلك انحطاط العبقريين لتشابههم كما هي حال المجرمين ولكن حقيقة الامر غير ما ادعى اذ التشابه نتيجة التركيب العضوي لاسيما تركيب الجمجمة المحتوية على المخ فان الجواهر المتشابهة لها اعراض متشابهة . ثم اضف الى ذلك كثرة الشواذ التي لا تحصر فان داروين يشبه القردة شبهاً مدهشاً ولا يشبه الاسكندر الاكبر الذي كان مشهوراً ببهاء طلعتهِ وكلاهما عبقري

وها نحن نثبت عن لومبروزو ذاتهِ ردّاً على مبادئهِ فقد حدث في عام ١٩٠٦ ان العلامة ليدويل الفرنسوي نشر كتاباً خاصاً باشكال عظام الوجه واثبت فيهِ ان التشويه العضوي ليس دليلاً على الاجرام او الجنون فحقق لومبروزو هذا

القول ونشر في المجلة العلمية في يونيو سنة ١٩٠٦ مقالة قال فيها ان العلامات الخارجية ليست قاطعة في امر الدلالة على الجنون او الاجرام انما لا بد من اجتماع عدد كبير منها يؤلف نوعاً خلقياً فلو اجتمع عدد من تلك العلائم الظاهرة لدى العبقريين فهذا يؤكد ما اشتبه من ان العبقرية اثر ثابت من آثار الانحطاط الصرعي. ولكن يظهر لنا ان العلامة لومبروزو تجاهل امراً جلياً وهو ان الاثر الاكبر في مظاهر العبقرية يرجع الى الجهاز العصبي الذي يختلف لدى الافراد قوة وضعفاً ودقة وخشونة وان الجهاز العصبي لا يبدأ وظيفتهُ الحقيقية الا بعد تكوين الاشكال العظمية فكان تأثير التشكل العظمي لا قدر لهُ لانهُ سابق لاداء الوظيفة العصبية التي تتوقف عليها عبقرية الفرد. ثم انتقل لومبروزو الى الجنون فقال ان العبقري لدى الاهام يشبه المجنون الهائج وذكر ان مونتسكيو كان كثير الفحص بقدميهِ وقت اشتغالهِ بالتأليف حتى انهما تركا اثراً في ارض الغرفة ويريد ان يثبت بذلك جنونهُ . ثم لجأ الى مثل منقطع النظير في تاريخ العبقريين وهو جنون اوجست كونت واضع الفلسفة الحسية فقال عنهُ انهُ بقي مجنوناً عشر سنين وانهُ لدى شفائهِ طلق زوجتهُ بلا سبب وتنبأ بان المرأة في المستقبل ستحمل بدون علاقة الزوجية ثم اعتقد انهُ نبي ورسول . والعجيب في هذه المعلومات انها كلها منقولة اغتباطاً كما ثبت فقد وضع العلامة جورج ديماس كتاباً اسمهُ تحليل نفسي فيلسوفين حسيين "Psychologie des deux Messie Positivistes" اتى فيهِ بكل المعلومات المهمة عن حياة اوجست كونت مع ان لومبروزو لم يكتب عن كونت سوى عشرة اسطر نصفها غلطات فان كونت لم يمرض الا ثمانية اشهر لا عشر سنين وطلق زوجتهُ لامور لا يشرفها ذكرها وكان طلاقها بعد شفائهِ بسنين طويلة . اما عن تنبؤهِ في مسئلة النسل فان كونت لم يكتب ذلك الا على صورة الامنية لا على صورة النبوة (راجع ما كتبهُ اوجست كونت في فصل السياسة الوضعية في المجلد الرابع الصحيفة ٦٨)

وبالجملة نقول ان لومبروزو لو كان في كل ما جمعهُ عن العظماء بالغاً من التقصير مبلغهُ فيما اهتدى اليهِ عن اوجست كونت فقد قضى بنفسهِ على رأيهِ لاسيما وان مبادىء لومبروزو باجمعها قد تفتت بين العلماء وطلاب الحكمة ولم يكن رأيهُ في العبقرية الا جزءاً من كلٍّ فاذا كان الكل منبوذاً فلا حاجة بنا الى بيان قيمة البعض . وجاء رأي هربرت سبنسر مخالفاً آراء السابقين فان رأي هذا الفيلسوف

هو ان الرجل العظيم انما هو ثمرة عوامل طبيعية واجتماعية شتى تتآزر باستقلال عنهُ مع انها مكونة لهُ بحيث لا يستطيع التأثير في مجموعها او في بعضها بحال من الاحوال. وهذا ما قالهُ في كتابهِ الشهير «مبادىء العلم الاجتماعي» — «ان العبقري ثمرة جيلهِ لانهُ ذرة في عصرهِ فهو ثمرة النظامات الاجتماعية والاقتصادية واللغات المكتوبة منها والمحكية والاخلاق الحسن منها والذميم والسماعات الصغير منها والجسيم والفنون جميلها والعقيم عدا عدد لا يحصى من المؤثرات المادية والادبية التي لا يخلو منها شعب والاطوار التي تقلبت عليها الامة التي نشأ فيها وكأن الطبيعة ارادت ان الرجل العظيم لا يتمكن من تحويل الهيئة الاجتماعية والبيئة المحيطة بهِ دون ان يكون للمجتمع والبيئة كل الفضل في تكوينهِ وتشكيلهِ وكل ما يملأ نفس العبقري من الآمال وما يتسع لهُ صدرهُ من جلائل الاعمال انما هو منقول برمتهِ عن الجيل الذي سلف »

وهذا الرأي كما ترى جاذب بظاهرهِ ولا يفقد كل قيمتهِ لدى فحص باطنهِ وان كان لسبنسر ما لهُ من رفعة الالمام بجميع المبادىء والآراء الانسانية ولهُ عذرهُ لانهُ نصب نفسهُ فيلسوفاً لاهل عصرهِ وان كان بنى تعليم الفلسفة على ما دونهُ من قبل اعظم فلاسفة اوربا في القرن الاخير العبقري اوجست كونت. ورأينا في رأيهِ عن العبقري ان الوسط والمجتمع والتاريخ والمؤثرات الاجتماعية والاساسية لا تخلق العبقري وتشكلهُ انما هي بمجموعها عنصر من العناصر الكثيرة المكونة للرجل العظيم. وقد ذكرنا رأي سبنسر لانهُ من اكبر ثقات الفكر البشري وسيبقى كذلك الى ان يفوز الفار ويليام جيمس الامريكي وبرجسون الفرنسوي. على اننا نعتقد ان معظم ما دونهُ هربرت الجليل لن يزول ولكن سيمروهُ كثير من التحوير وهذه سنة الطبيعة في المبادىء الانسانية اما ويليام جيمس الذي ذكرتهُ قبلهُ رأي في العبقرية يناقض رأي هربرت سبنسر على خط مستقيم. قال جيمس في مقالة نشرتها مجلة الشهر الاطلانطي في اكتوبر عام سنة ١٨٨٠ ان حقيقة الاسباب المنتجة للعبقري بعيدة عن الدائرة الفكرية التي يستطيع الفيلسوف الاجتماعي ولوجها. والواجب على الفيلسوف الاجتماعي ان يقبل العبقرية كقضية مسلم بها لا تقبل المناقشة او الجدل كما قبل داروين التنوعات الغير المعللة (Spontaneous variations.) في مبدأ النشوء ولكن هناك مسألة

شغلت ذهن الفيلسوف الامريكي وهي خاصة بتأثير البيئة في العبقري وتأثير العبقري في بيئته وقد اكد هذا الباحث ان نسبة تأثير الوسط الخارجي في العبقري كنسبة تأثير الظواهر الخارجية في النموات الداروينية . وبيان هذا القول المجمل ان الوسط الاجتماعي اما ان يقبل العبقري ويحبوهُ نعماً وعجداً واما ان يأباهُ ويلفظهُ واما ان يحتفظ بهِ ويصونهُ واما ان ينقلب عليهِ ويهلكهُ . وخلاصة هذا البيان ان البيئة لا علاقة لها بالعبقري سوى علاقة الاختيار فهي تختارهُ . واراني اميل كثيراً الى الالتفاف حول رأي هذا الحكيم لانهُ يخالف سبنسر بطلاقة الرأي وسلامة النظر ولانهُ ربط العبقرية بمبدأ ثابت معروف وهو رأي داروين اما سبنسر فقد اتبع طريقة التعميم المنطقي وقال قولاً لا يظهر فيهِ الحق من الزغل وهو ان العبقري هو خلاصة امتهِ وارقى ما يمكن وصولها اليهِ من الرقي الفكري وصحة العزم . وقد دلت الخبرة على استحالة وجود عبقريين في اسرة واحدة ويحدث ان المرأة التي تلد ارقى انسان في عصرهِ تلد بعدهُ احمق او معتوهاً او مجرماً ويكون اقارب العبقري في معظم الاحيان عيالاً عليهِ . ويغيظ العاقل ان كثيرين من اقارب العبقريين يلتمسون لانفسهم مكان العبقري اعتماداً على رابطة القرابة . وقد اخطأ من قال ان شهرة فكتور هيجو اضرت باولادهِ فان شهرة دعاس الكبير لم تقلل من قدر ولدهِ كذلك لم يكن الحسن والحسين رضي الله عنهما ليذكرا في جانب فروسية وفصاحة والدهما الامام علي رضي الله عنهُ . وخلاصة القول هي ان العبقري انسان ممتاز عن امثالهِ ولكن لا يمكن حصر العناصر المكونة لعبقريتهِ ويكون قدرهُ الحقيقي بنسبة النفع الذي يعود على الوسط الذي يعيش فيهِ اولاً وعلى العالم جميعهِ ثانياً ولهُ اطوار واحوال شاذة ليس الجنون او الصرع مرجعها اعامر جمها فيضان حيويتهِ وغزارة قوتهِ العصبية . وان للعبقري خطة يرسمها لبلوغ ما يربهِ من اصلاح حال المجتمع الذي يعيش فيهِ قد يفطن اليها من حولهُ وقد لا يفطنون ولكنها مرسومة ثابتة فلا يقوم بعمل مناقض لها لان غريزتهُ تأبى التناقض وقد يكون التناقض ظاهراً ولكن الظواهر في احوال العبقريين واعمالهم لا يبأ بها وامتياز العبقري انقطاعهُ لعمل يعود منهُ نفع عام ويستحيل ان ينقطع الى عمل لا يعود نفعهُ الاَّ على ذاتهِ لذا اشتهر اكثرهم باهمال الذات والتفاني في حب المجموع والغير

محمد لطفي جمعه